Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(صونيا) التي أحبها لأنها معذّبة مثله، وكأنني بـ دوستويفسكي يعيد بذلك سيرة حبه لزوجته الأولى (ايساييفا) التي تعرّف إليها وهو لايزال يقضي سنوات الحكم بالنفي في سيبيريا، فقد كانت معذبة من قبل زوجها السكير، ودوستويفسكي يرى ذلك العذاب فيقدسه، ويدرك معاني صبرها فيغبطها عليه، وما إن مات زوجها حتى تزوجها ليقاسمها الهمّ ونتائج سلوك ولدها (من زوجها الأول) الوحيد الذي أشقاها وأشقاه.

ذلك التعاطف الذي يبديه القارئ مع (راسكولنيكوف) هو مداورة لم يعهدها الأدب قبل دوستويفسكي لاسيما وإن عرفنا بأن (راسكولنيكوف) رجل مخفق في مجمل حياته باستثناء بعض الشرارات النبيلة التي تصير مواقف، فهو مخفق في دراسته، غير ناجح في كتابته (ودّ أن يكتب مقالات عن الجريمة فلم ينشر سوى مقالة وحيدة تباهت بها أمه كثيراً)، وهو محدّث ممل، وحضوره ثقيل، ومزاجه عكر، وسلوكه فيه شيء من البله والبلادة، واحترامه لأمه وأخته قليل مع أن غيرته تجاههما كبيرة جداً، رث الثياب، مهمل في واجباته، يعيش عالة على أخته وأمه والخادمة (ناستاسيا)، أي، باختصار، إنه نموذج بشري غير سوي لديه طموحات وآمال يود أن يحققها بطرق عدوانية وأساليب لا إنسانية، ومع ذلك كله يحسّ القارئ بأنه مضطر للتعاطف معه، يخاف حين يخاف هو، ويقلق مع قلقه، وتلفّه الحيرة والأسئلة حين يغيب عن الوعي، ويتحالف معه نصيراً ضد محققيه والواشين به، بل إن مايثير القارئ ليس جمهرة المتحدثين الجالسين مع (راسكولنيكوف)، وإنما مايثير حقاً هو صمت (راسكولنيكوف)؛ صمته الأبلغ زمن الكلام.

وغير هذا كله، هناك شيء آخر يدلل على فذاذة دوستويفسكي فحواه أن هذا العمل الكبير الذي من الممكن كتابته في قصة قصيرة، لايثقل على القارئ في أية مرحلة من مراحل القص، بل إن القارئ وحين يقف على جوهر القصة (الجريمة وغاياتها ونتيجة الحكم) يصير هذا الجوهر لا أهمية له من دون قصة (صونيا) أو قصص (دونيا) و (سفيدريجايلوف) و(رازوميخين) و(جماعة التحقيق)..الخ؛ إنها كلها قصص كالمرايا في تقابلها تتبادل الضوء دونما غمط أو تفاخر. ويضاف إلى ذلك أن دوستويفسكي لم يكشف عن أعماق (راسكولنيكوف) وحده، ولا عن أعماق سائر الشخصيات المحيطة به أيضاً وحسب، وإنما كشف عن أعماق طبقات اجتماعية عديدة في روسيا، طبقات قليلة مالكة، وأخرى عديدة غير مالكة، ولذلك يصح القول: إن هذه الرواية (الجريمة والعقاب) تشكل حلقة